نبياً ، بل من اكتملت فيهم صفات نفسية وعقلية معينة . والرأى الأخير الذى ينحاز إليه الفيلسوف اليهودى هو أن النبى إنسان كامل من الناحية العقلية قد فضله الله واصطفاه على عباده الآخرين[١] . ولا بد له من مخيلة قوية تمكنه من الاتصال بالعقل الفعال وتقفه على الأمور المستقلة كأنما هى أشياء محسوسة ملموسة[٢] . وعلى قدر ما تعظم المخيلة ويزيد اتصالها بالعالم العلوى تسمو الالهامات النبوية وتتنوع ، ومن هنا تفاوت الأنبياء فيما بينهم بتفاوت مخيلاتهم ، واختلف ما يوحى إليهم تبعاً لذلك[٣] . فقوة المخيلة إذن ذات أثر كبير فى الكشف والالهام وشرط أساسى فى كل من يرقى إلى مرتبة النبوة[٤] . بيد أنه يجب أن يضم النبى إلى مخيلته قوى عقلية عظيمة ، لأن المخيلة لا تستطيع أن تصعد إلى درجة العقل الفعال إن لم يكن فى معونتها قوى فكرية ممتازة[٥] . هذه الملاحظات على اختصارها تكفى للبرهنة على أن ابن ميمون اعتنق فى إخلاص نظرية الفارابى فى النبوة

وأما ألبير لجراند فقد أثرت فيه الآراء الفارابية عامة من نواح كثيرة . فهو يقول بنظرية فى السعادة لا تختلف كثيراً عما ذهب إليه الفارابى ، ويقرر أن الانسان متى وصل إلى مرتبة العقل المستفاد أصبح على اتصال دائم بالعالم الروحانى ، وأمسى إلى حدما شبيها بالله ، ووقف على المعارف المختلفة ، وفاز بغبطة لا نظير لها[٦] . ويحلل من جهة أخرى نظرية النبوة تحليلاً سيكلوجيا يتفق اتفاقا تاما مع ما جاء به الفارابى[٧] . كل هذا يثبت ، كما لاحظ ربنان من قبل ، إلى أى حد نفذت اللغة العربية والنظريات الاسلامية الخطيرة إلى المدرسة الألبيرية[٨] . ومهما علينا أن نحدد على وجه التقريب المصدر الذى استقى منه ألبير نظرية النبوة الفارابية ، فانه لا يبعد أن يكون قد قرأ عنها شيئاً فيما ترجم من كتب ابن سينا إلى اللاتينية ، أو فى كتاب دلالة الحائرين الذى أحرز منزلة عظيمة فى مختلف المدارس المسيحية

(يتبع) ابراهيم بيومى مدكور

(١) ibid., p. 298.
(٢) Ibid, p 333 et suiv.
(٣) Ipid., p. 333
(٤) Ipid.' p. 232.
(٥) Ipid., p. 313
(٦) Reuan, Averroès, 235
(٧) Ibid
(٨) Ipi

فى الأدب المقارن

أشكال الأدب
فى الأدبين العربى والانجليزى
للأستاذ فخرى أبو السعود

تبدأ العلوم والفنون الانسانية كلاً مختلطاً كالسديم ، فاذا ما ارتقت وتطورت تبينت أجزاؤها وانفصلت ، ووضحت أشكالها وتميزت ، وتعددت مناحى كل علم وفن ، وتوفر بعض ممارسى تلك العلوم أو الفنون على ناحية من نواحى العلم أو فرع من فروع الفن وتوفر غيرهم على غيرها ، كلٌّ يتبع ما هو أقرب الى طبعه وأوفق لعبقريته وأتمّ تعبيراً عن منازعه ؛ وكلما ارتقى العلم أو الفن جدت فيه ضروب وأشكال لم تكن من قبل ، وتولدت من الأشكال القديمة أخرى غيرها

وذلك شأن الأدب : يبدأ بانفصال الشعر عن الموسيقى ، فاذا هو ألحان وأهازيج ساذجة المعانى ؛ ثم ما يزال جانب المعنى منه يقوى حتى يطغى على جانب النغم ، حتى يبلغ الشعر أشده وما تزال الأمة متبدية ؛ فاذا ما نالت حظاً من الحضارة والثقافة ظهر النثر بجانب النظم ، حاوياً لكثير من مميزات الشعر الفنية : كالتعبير عن الوجدان وحسن اختيار الألفاظ المعبرة ، فاذا ما استمر الأدب فى رقيه تعددت أشكال النظم والنثر واختلفت صورها ، واجتذب كل شكل فريقاً من الأدباء يصطفونه دون غيره أو بجانب غيره ، لاخراج أفكارهم وأحاسيسهم فى قالبه ، وإبراز نظرتهم الى الحياة فى أوضاعه وحدوده

فتعدُّد أشكال الأدب من دلائل رقيه وابتعاده عن عهود الابتداء وعصور الابهام والعموم ، وهو أيضاً من دلائل سريان روح التجديد فيه : فمن طبيعة النفس الانسانية أن تسأم النغمة الواحدة إذا كررت ، مهما كانت عذوبتها أو براعة صاحبها ، وتستوى فى ذلك الموسيقى وغيرها من الفنون ، فاذا ما سئم جيل شكلا من أشكال الأدب ، أو أصبح ذلك الشكل الأدبى غير ملائم لعصره ، فأن روح التجديد — إذا كانت هناك — تدفعه

إلى ابتكار شكل طريف ملائم ، وهجر الأشكال القديمة مهما كانت منزلة الأدباء المتقدمين الذين مارسوا تلك الأشكال ، ومهما يكونوا قد أودعوها من صادق الأفكار والشعور ، ومُحكم الصور لعصورهم

وقد شهد الأدب الانجليزى عصر إليزابث ، وهو ما يزال مختلط الأجزاء ، مضطرب الصُّور ، لم تتميز أشكال منظومه ومنثوره ، بل لم تستقم بعد أساليبه الشعرية ولا لغته الكتابية ؛ فما لبث الشعر على أيدى شكسبير ومعاصريه من مؤلفى المسرح ، وسبنسر وملتون ثم دريدن ، أن كسب لغة نقية مختارة ، وأشكالاً واضحة بينة ، صالحة للتعبير عن شتى الأفكار وتصوير مختلف الحالات النفسية . وضع شكسبير أساس الشعر المرسل ، ورفع بعبقريته مكانة ذلك الضرب من الموشحات المعروف بالسونيت ، وهو موشح من أربعة عشر بيتاً متداخلة القوافى على هيئة تبرز الفكرة الوحيدة التى تتضمنها السونيت إبرازاً رائعاً ؛ ووضع سبنسر موشحه المنسوب إليه والمكون من أبيات تسعة متداخلة القوافى آخرها أطول عروضاً من سائرها ، مما يجعل الموشح أداة صالحة للقصص الشعرى الرصين

وجاء ملتون فأدخل الملحمة فى الشعر الانجليزى الحديث : والملحمة أعظم ضروب الشعر شأناً ، وأكثرها كلفة ، وأبعدها منالاً لما تحتاج إليه من طول التوفر ، وعمق البصر بالأدب ، واتساع الثقافة ، والتضلع من اللغة ، والتمكن من الأساليب الشعرية ، وامتداد الخيال ؛ وقد قدّر كولردج الزمن اللازم لانشاء ملحمة بعشرين عاما : يتصرف الشاعر فى عشر منها إلى الاستعداد والتحضير ، ويتوفر فى عشر على الانشاء والتجويد ؛ وجاء دريدن عقب ملتون فوطد أساس ضرب آخر من النظم يدعى الأود ode أو القصيد الخطابى ، يمتاز بوعورة عروضه وقوافيه ، ويوجه الخطاب فيه عادة إلى شىء مخصوص أو فرد معروف أو ذكراه ؛ ورفع دريدن كذلك مكانة « الدوبيت » فى الشعر الانجليزى ، أعنى القصيد المؤلف من أبيات ثنائية القوافى ، محكمة الوزن ، مصقولة اللفظ ؛ وهو الضرب الذى تلقفه عنه پوپ فزاده صقلاً وإحكاما ، وساد من بعدها القرن الثامن عشر

توطدت دعائم الشعر وتميزت أشكاله فجاء دور النثر ، وهو دائماً متأخر عن الشعر فى الظهور ، ودعت الأحوال السياسية والاجتماعية التى سادت القرن الثامن عشر إلى احتفاء الأدباء والمثقفين بالنثر : فقد كانت النظم الدستورية قد استتبت ، والرأى العام قد تكون ، والطبقة الوسطى قد تعاظم شأنها ، والحركة العلمية قد نشطت بعد ما اقتبسته انجلترا من علوم أهل القارة ، والصحف قد انتشرت معتمدة على الرأى العام والطبقة الوسطى ، وقد عبر عهدُ المخاطرة والجهاد الذى تجلى فى حكم إليزابث وثورة المطهرين ، وألهب خيال الشعراء ، وجاء عهد الاصلاح والعمل الرزين فى الداخل والخارج

وفى أول ذلك القرن كان النثر الانجليزى حطاماً مبعثراً من الألفاظ المتنافرة والتعابير المتعثرة ، والأساليب العامية ، وزخارف اللفظ ، وبهارج المعنى ، والتقليدات الفاشلة للأسلوب اللاتينى المتطاول الجمل ؛ فما لبث دريدن وكاولى أن هذبا من حواشيه وقوّما من معوجه ، ونقياه من الغريب والسوقى ، فظهر النثر الانجليزى الحديث المعروف ببساطة ألفاظه ، ولطافة مأخذه ، وسلاسة تعابيره ؛ ثم تلاهما أديسون وستيل فوطدا دعائم « المقالة » فى الصحف التى تعاونا فى إصدارها ، فاذا المقالة شكل من أشكال الأدب جم المزايا . فهى تدور حول فكرة مفردة تكون وحدتها وتجمع حولها شتى الأفكار الثانوية ، وتتناول ما شاء الكاتب أن يدرسه من مسألة اجتماعية أو نقد أدبى أو حالة نفسية ، أو نظرة فى الفنون

ومن المقالة نمت بذور شكل آخر من أشكال النثر دعت إليه طبيعة ذلك العصر : هو القصة التى تكونت من اجتماع عدد من المقالات تدور حول شخصيات معينة ، فما لبث الذوق العام أن استطرفها وكان قد مل الرواية التمثيلية ، فحلت القصة محلها فى تصوير المجتمع ودرس الأخلاق واستكناه دخائل النفس الانسانية ، وتوفر عليها من كبار الكتاب أمثال ريتشاردسن وجولد سميث ، وجين أوستن ، فأحكموا أوضاعها ، وهذبوا حوارها ووضحوا شخصياتها ، وأسلموها إلى القرن التالى شكلا من أشكال الأدب جم المزايا مبشراً بمستقبل حافل

وكأن النثر لم يقنع بهذا الضرب الخيالى من التأليف ، وآثر أن يجعل من الحقيقة الواقعة مادة للفن كما جعل من القصص الخيالى ، ويتخذ من الماضى مراداً له كما اتخذ من الحاضر ،

فالتفت إلى التاريخ ، وكان من قبل يدون باللاتينية أو بالانجليزية ملتوية التراكيب مختلطة الحقائق بالأوهام والأكاذيب ، فبعث فيه الروح الفنية التي شملت نواحي الأدب ونفخ فيه النزعة العلمية التي تفشت في سائر العلوم ، ولم ينصرم القرن إلا وقد ظهر أكبر أثر تاريخي في اللغة ، وهو كتاب جيبون عن الدولة الرومانية ، وإذا النثر الفني قد كسب شكلا جديداً هو التاريخ الفني للعصور أو الوقائع أو الأبطال

وهكذا صار الأدب الانجليزي أدباً رفيعاً متسع الجوانب متميز الأوضاع متعدد الأشكال ، مشتملاً على أرقى ما لدى الأمم الأخرى من الصور الأدبية ، يقدم لمارسيه ما يختارونه من أشكال الأدب ملاءماً لطبائعهم ، ولقرائه ما يؤثرونه موافقاً لأذواقهم ، وورث القرن التاسع عشر عن القرنين السابقين له تراثاً ضخما من أشكال المنظوم والمنثور وآثار الفحول فيهما ، فلم يكد يحس حاجة الى استحداث أشكال أخرى ، بل انصرف إلى استغلال ما بين يديه منها ، ولاءم بين بعضها وبين حاجاته ، وآثر بعضاً منها على بعض : فعالج وردزورث وتيسون الشعر المرسل ، وعالج سوذى وموريس وهاردى الملحمة واختلفت حظوظهم من النجاح ، واستغل هازلت وتكرى وماكولى المقالة في النقد الأدبي ، وعالج ماكولى وكارليل التاريخ . وهجرت الرواية التمثيلية الشعرية وحلت محلها أخرى نثرية أكثر التزاما للواقع وملاءمة لحاجة العصر ، وتعاظمت مكانة القصة الطويلة والصغيرة حتى فاقت ما عداها ، والتفتت إلى تصوير المجتمع الجديد القائم على الصناعة والمخترعات

أما تاريخ الأدب العربي منذ نهضته بقيام الاسلام وتوطد دولته ، ودخوله في طور الحضارة والثقافة ، فغاير لهذا : فقد ورث عن الجاهلية لغة قوية غنية تبشر بمستقبل عظيم ، وشعراً رصيناً محكم الاوزان متعددها موطد الأركان ممهد الأساليب مؤذنا برقي إلى أبعد الغايات ، فاذا الأدب يجمد في أول الطريق ، ويجتزئ بماضيه عن مستقبله ، ويطوي زهاء خمسة قرون من عهود الحضارة والثقافة ، فلا يتفرع كما تفرع الأدب الانجليزي إلى أشكال متميزة ذات خصائص واضحة ، بل يظل كل من الشعر والنثر سديماً مشوشاً كما كان في أول بدئه ، وينبغ من فحول العربية أمثال ابن المقفع والجاحظ وابن الرومي والمتنبي والمعري ، فلا يعنيهم غير تقبل السلف فيما درجوا عليه من مناهج القول ، ولا تتوطد على أيديهم أشكال جديدة للنظم والنثر ، ولا يؤدون للعربية الخدمات الجلى التي أداها للانجليزية أبناؤها

طوى الأدب العربي عصور ازدهاره وهو يضرب على نغمة واحدة في النظم وأخرى في النثر ؛ ففي النظم ظلت القصيدة الفريدة القافية ، غير المحدودة الطول ، غير الموحدة الفكرة ، غير المعروفة العنوان ، هي الشكل الشعري الوحيد ، يصوغ فيه ابن القرن الخامس أفكاره كما صاغ الجاهلي أفكاره من قبل ؛ وفي النثر ظلت كتب الأدب المبهمة العناوين المشتجرة الفصول والفقرات المتباعدة المواضيع ، المختلطة النظم بالنثر ، والأدب بالدين ، والقصص بالنقد ، هي الضرب السائد منذ انتشرت الكتابة إلى أن حمد الأدب

وفي الشعر ابتكرت الموشحات ، فلم تكن غير زخارف من القوافي ينمقها الناظم كما شاء دون أن تكون أوضاع قوافيها معينة على إبراز المعاني ، ولم ينتشر استعمال تلك الموشحات واقتصرت على ضروب من الشعر الوجداني الضئيل الحظ من المعنى . قال ابن رشيق : « وقد رأيت جماعة يركبون المخمسات والمسمطات ، ويكثرون منها ، ولم أر متقدماً حاذقا صنع شيئاً منها لأنها دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه وضيق عطنه . . . وهذا الجنس موقوف على ابن وكيع والأمير تميم ومن ناسب طبعها من أهل الفراغ والرخص » ؛ وفي النثر ابتكرت المقامة فاذا هي أشد من الموشح احتفاء باللفظ ، وإذا هي لا تفوقه ذيوعا ونجاحا ، وحاكته عقما فلم ينتج عنها ابتكار جديد ، كما مهدت القالة في الانجليزية السبيل مثلاً للقصة

فاذا بحثت في الأدب العربي عن أشكال أدبية متميزة متعددة لم تجدها ، وإنما ظل الأدب كما بدأ سديما مختلطا متشابها : ارتقت معانيه وتعددت أغراضه ورقت ديباجته ، ولكن جد شكله فلم يتحول الى أشكال جديدة ، وظل النقاد لا يقسمون الأدب الى أكثر من نظم ونثر ثم يقفون ، ويفاضلون بين النظم والنثر مفاضلة ليس لها موضع ولا هناك مايسوغها ؛ فأن أرادوا التوسع فاضلوا بين الرجز والقصيد ، وقدموا شاعرا على شاعر لبراعته في الطوال أو في القطع ، وهي مفاضلات كذلك لا موضع لها ولا مبرر ، لأن هذه الأشياء متقدمة الذكر ليست بأشكال

للشعر متميز كلٌّ منها بخصائص فى الأسلوب أو فى الموضوع ، تجعل شكلا منها أصعب على الشاعر المعالج من شكل آخر أو أبعد متناولا

وإنما جنح بالأدب العربى الى هذه الحال من الجمود الشكلى التى لا يجد معها جديد ، ولا يحل طريف محل عتيق ، ولا يتسع أفق الأدب ولا تتشعب مناحيه ، عوامل تقدمت الاشارة اليها مراراً وكان لها أبعد الأثر فى تاريخ الأدب العربى ، بل كان لها فيه ضرر بليغ ، إذ باعدت بينه وبين أن يكون دائما تعبيرا حرا صحيحا عن شعور الفرد والمجتمع ، متطورا مع حاجات الأجيال وتجدُّد شؤون الحياة ، وتلك هى تغلب روح المحافظة على روح التجديد فيه ، واعتماده على تشجيع الملوك ، واعتزاله الآداب الأخرى ، واحتفاله باللفظ قبل المعنى

فلو عنى أدباء العربية بدراسة الآداب الأخرى حق العناية لاطلعوا على أشكال للأدب تستحق أن تنقل الى العربية فتكون باعثا على ابتكار غيرها . ولقد اهتدى الأدباء الانجليز فى كل ابتكاراتهم سالفة الذكر بهدْى الأمم الأخرى : فالسونيت اقتبسوها عن بترارك ، والشعر المرسل أخذوه عن الدرامة الاغريقية ، والأود نقلت عن بندار ، والملحمة تأثر فيها ملتون أثر هوميروس وڤرجيل ، والمقالة أوحت بها كتابات مونتين ؛ وليس يدين الأدب العربى بشىء من هذا لغيره من الآداب ، ولو فعل لجاء أرحب آفاقا وأوضح مناهج وأبرز أشكالا

استقل الأدب العربى بنفسه واعتزل غيره ، ولم يكن له من داخله حافز الى التجديد والابتكار : فأن نفس السبب الذى صده عن آداب الأمم الأخرى صدف به عن تجديد نفسه ، ذلك السبب هو اكبار المتقدمين وإجلال آثارهم إجلالاً لا مطمع معه الى تنكب طرائقهم أو الحيدة عن أساليبهم ، وغير هذه النزعة المحافظة كانت تسود الأدب الانجليزى : كانت روح التجديد متمكنة من سائر خُوله ، لا يمنعهم إعجابهم بمتقدميهم من الأعلام عن اختطاط غير طرقهم ، وبفضل هذه الروح المجددة كان الأثر المنقول عن الآداب الأجنبية لا ينشب أن تتمثله الانجليزية ويونع فيها ، ويؤتى ثمرا جديدا لم تحظ به الآداب المنقول عنها ؛ فالسونيت أصبحت فى الانجليزية ضربين : الشكسبيرى والملتونى ؛ والمقالة هذّبت واستخدمت فى مقاصد لم تخطر لمونتين على بال ، وكانت أداة إصلاح اجتماعى نادر المثال ، وخرجت من غضونها القصة الاجتماعية

وولوع أدباء العربية بالألفاظ استغرق كل تفكيرهم واجتهادهم : ألهاهم احتيال الحيل فى تنسيق الألفاظ وإظهار البراعة فى استخدامها عن التفكير فى المعنى أو الشكل الأدبى الذى يصاغ فيه ، فابتكروا كثيراً فى البديع الذى يتعلق باللفظ ولم يبتكروا فيما يتعلق بالشكل الأدبى . ولما أراد شاعر مجيد كالمعرى أن يأتى بجديد فى القوافى لم يتجه إلى تحرير الشعر من بعض قيودها أو تذليلها لابراز المعنى على أحسن صورة ، بل زادها قيوداً فضاعف حروف الروى فى لزومياته ، لأنه كان يحس أنه يفعل ذلك دون أن يَحْرِمَ التقاليد الأدبية المتخلفة عن الأقدمين ، ودون أن يتهمه منهم من النقاد كابن رشيق « بعجزه وقلة قوافيه وضيق عطنه »

واعتماد أدباء العربية على توال الأدباء ، وترددهم على أبوابهم ، ومشاركتهم إياهم فى لذّاتهم وتَرَفهم أحياناً ، أو دوام طموحهم إلى تلك اللذات والمتعات ، وذهاب أيامهم بين مرارة الحرمان ونشوة اللذاذة ووخامة البَشم والخُمار ، كل ذلك لم يدع لهم وقتاً للتوفر على الأدب الصحيح والانصراف إلى الفن الرفيع ، ولم تقم أمامهم حاجة إلى الابتكار والتجديد ، إذ كان الأمراء قانعين أن يقال فيهم مثلُ ما قيل فيمن قبلهم من الملوك الفخام وكما قيل فى أولئك الملوك ، فكان حسب الشاعر أن يقتفى أثر من قبله ويحذق وسائله فى اقتناص معانى المديح

أما خول الانجليزية فكان معظمهم بمنجى من هذه الحاجة الملحّة ، ومعتصم من حياة الفلاكة واللذاذة التى كان يحياها كثير من أدباء العربية ، وكان لهم بفضل كدّهم فى سبل الحياة أو بفضل ما ورثوه من ثروة غنى عن سؤال الأمراء ، ومتّسع من الوقت للاعتزال فى صومعة الفن الخالص من شوائب المادة ، بل كان منهم أفراد كوردزورث وشلى وتنيسون عاشوا فى رغد دون أن يعملوا فى حياتهم عملاً سوى أن يقرأوا ويكتبوا ما يسر نفوسهم ويرضى الفن وحده . ولا ريب أن أمثال هؤلاء أشد رغبة فى التجديد والاختراع ، وأقدر على القيام بالتجاريب الأدبية فى الأشكال والصيغ والمواضيع ، ممن يقضون العمر نظماً للمدح والسؤال وترقُّباً للرضى والانعام . وقد فطن ابن رشيق فى عبارته السالفة إلى ضرورة اتساع الفراغ للتفنّن فى ضروب القول ،